# النظريات السوسيولوجية للتربية

## السنة الأولى ماستر علم اجتماع التربية

## السداسي الثاني

## المحاضرة الأولى

## المقاربة الإثنوغرافية والأنثروبولوجية

## الإثنوغرافيا والتربية

### تمهيد

أخذ مصطلح الإثنوغرافيا **L'ethnographie** منذ ظهوره سنة 1607 دلالات عدة، وأولى هذه الدلالات كان في فرنسا سنة 1839 ليدل على المجتمع الإثنولوجي، وفي الأدبيات الروسية يدل على دراسة الشعوب، وفي الثقافة الأنجلوسكسونية، يحيل على الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية.

عرفت الدراسات الإثنوغرافية انتشار كبيرا بفعل حركة الاستعمار، بهدف دراسة الشعوب المستعمرة، والبحث في خصوصياتها الإثنية، واللغوية، والعرقية، والاجتماعية، والثقافية، الحضارية.

وحسب كلود ليفي شتروس **Claude Lévi-Strauss**، لابد من التمييز بين مجموعة من المصطلحات : الإثنوغرافيا، والإثنولوجيا (**Ethnologie**)، والأنثروبولوجيا (**Anthropologie**) :

**1.**الإثنوغرافيا : هي تلك الدراسات التطبيقية لمعرفة كيفية تنظيم المجتمع، وتعني أيضا "الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد، والعادات، والقيم، والأدوات والفنون، والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة، أو مجتمع معين، خلال فترة زمنية محددة"[1]، وهي بهذا بحث ميداني تطبيقي ومنهجي.

**2.**الإثنولوجيا : أو علم الأعراق، وهي تلك الدراسات التحليلية والمقارنة للمادة الإثنوغرافية، من أجل وضع تصورات نظرية وتعميمات حول مختف النظم الاجتماعية الإنسانية.

1 جميل حمداوي، سوسيولوجيا التربية،منشورات حمداوي الثقافية، تطوان، الطبعة الأولى، 2018، ص100.

يعتبر العالم السويسري شافان (**Chavanenes**)أول من استخدم هذه الكلمة في عام 1787 في كتابه "**محاولة حول التربية الفكرية مع مشروع علم جديد**". وبعدما كانت أن بداية من القرن التاسع عشر ضمن ما يسمى بالأنثروبولوجيا البيولوجية حاليا ومع منتصف القرن العشرين أصبحت تشير إلى مجموعة العلوم الاجتماعية التي تدرس المجتمعات البدائية أو ما يسمى بإنسان المستحاثات، وهي بذلك لا تختلف عن الأنثروبولوجيا أو هي جزء منها. أما حاليا فإنها تعني "الدراسات التركيبية والنتائج النظرية حول الإثنيات والأعراق أو الأجناس من خلال الوثائق الإثنوغرافية.

تنقسم الإثنولوجيا إلى أقسام عدة منها **إثنولوجيا التاريخ** التي تدرس الشعوب المنقرضة بإعادة تكوينها وتشكيلها تاريخا، مثل : دراسة شعوب الأنكا والأزتيك؛ **وإثنولوجيا الفلاحة** التي تعنى بدراسة المجتمعات الفلاحية أو الزراعية داخل المجتمعات الصناعية؛ **وإثنولوجيا المدينة** التي تهتم بدراسة بعض الظواهر الاجتماعية داخل تجمعات ضيقة داخل المدينة، مجتمع بني ميزاب مثلا.

**3.**الأنثروبولوجيا : يمكن وصفها على أنها دراسة **ميتا** وصفية (ما وراء الوصف) وتحليلية تعتم بالمقارنة بين الشعوب والإثنيات والأعراق. إنها تعني دراسة الإنسان على أنه كائن بيوثقافي، بمعنى دراسة الإنسان في طابعيه العضوي الفيزيقي (التشريحي، والفيزيولوجي، والمورفولوجي، والتصوري)، والثقافي (النواحي الاجتماعية، والدينية، والجغرافية، والنفسية...)

تلتقي الأنثروبولوجيا مع الإثنوغرافيا والإثنولوجيا في دراسة ثلاثة عناصر أساسية هي : الكائن الإنساني، والمجتمع، والثقافة.

## الإثنوغرافيا والتربية

من التوجهات التي أخذت تظهر أكثر فأكثر في البحوث التربوية في الآونة الأخيرة المنهج الإثنوغرافي في البحث. والسبب الرئيسي في الاهتمام المتزايد بالبحوث الإثنوغرافية هو غالباً عدم الارتياح للطرق التقليدية في بحث بعض المشكلات التربوية.

تهتم المقاربة الإثنوغرافية بدراسة المدرسة والجماعة على المستوى المحلي، ودراسة المؤسسة والفصل الدراسي في ضوء المجتمع المصغر، وتعتمد على الملاحظة والمعايشة وطرائق البحث الميداني، والمقابلة بأنواعها، والتركيز على الوحدات الصغرى المكونة للفصل الدراسي، مثل : المتعلم، والمعلم...إلخ بغية الكشف عن الجوانب الاجتماعية المخفية.

## وسائل جمع البيانات في المنهج الاثنوجرافي

### أ- الملاحظة

لعل أهم طرق جمع البيانات في الدراسات الإثنوغرافية هو ملاحظة المشارك، حيث يكون الملاحظ جزءاً من الموقف الذي يقوم بملاحظته، ويصبح فرداً في المجموعة التي يشاهدها و يشاركها نشاطاتها وسلوكياتها. والفلسفة وراء هذا الأسلوب أن مشاهدة الموقف من الداخل في بعض الحالات تكون أكثر دقة من مشاهدتها من الخارج. وهناك درجات لمشاركة الباحث، فقد تتم الملاحظة بطريقة ظاهرية أو خفية. ويتوقع من الباحث الذي يقوم بالملاحظة توخي الموضوعية ما أمكن. والملاحظة بالمشاركة تتميز بالمزايا التالية:

تحدث الملاحظة في الموقع، ولعل أهم متطلبات البحث الاثنوجرافي تواجد الباحث في الميدان لمدة طويلة، مما يسمح له بوصف واستقصاء العمليات، وملاحظة التغيرات في الموقف موضوع الدراسة.

- **جمع البيانات المطول**: يستمر الباحث في جمع البيانات حتى يشعر أنه وصل إلى حد الإشباع وأن هدفه قد تحقق؛ فمثلاً قد يستغرق تجميع البيانات حول برنامج مدرسة صيفي ثلاثة أسابيع، بينما قد تصل إلى عشرة أسابيع إذا كان البرنامج حول دراسات في الطب النفسي مثلاً.

- **التوصل إلى الحقائق**: تساعد ملاحظة الباحث في التوصل إلى ما يدركه الناس من خلال أفعالهم ومشاعرهم ومعتقداتهم، وقد يتوصل إلى ذلك من خلال إدراكات الناس اللفظية وغير اللفظية وتعبيراتهم الجسمية واللفظية، إذ قد تقود كل من تعابير الوجه ونبرة الصوت وحركات الجسم وغيرها من التفاعلات الاجتماعية غير الملحوظة إلى المعنى الدقيق للغة.

- التحقق من الملاحظات الميدانية: حيث يسعى الباحث الاثنوجرافي إلى معرفة وجهات نظر مختلفة للأحداث والأشياء من قبيل المشاركين المختلفين وذلك من أجل الدقة والمصداقية.

### ب- المقابلة الإثنوغرافية ethnographic interview

تتكون المقابلات الإثنوغرافية من أسئلة ذات إجابات مفتوحة، وذلك من أجل الحصول على معلومات ذات صلة بحياة المشاركين وإدراكهم لعالمهم، ولأحداث مهمة في حياتهم.

وتأخذ المقابلات النوعية عدة أشكال، منها مقابلات غير رسمية ومقابلات شبه رسمية وأخرى رسمية، والمقابلات المفتوحة المقننة. وتختلف هذه المقابلات في بنائها وتخطيطها؛ ففي المقابلة غير الرسمية تطرح الأسئلة بشكل عفوي بحيث تنسجم مع السير الطبيعي للأحداث. أما **فيما يخص** المقابلة شبه المقننة فيتم اختيار المواضيع التي سيتم جمع البيانات عنها بشكل مسبق، وتطرح الأسئلة بترتيب يقرره الباحث، كما يقرر مدى العمق الذي يمكن أن يذهب إليه في جمع البيانات. أما في حالة المقابلة المقننة فيتم طرح الأسئلة بنفس الترتيب الذي أتت به دون تغيير، وذلك للتقليل من تحيز المقابلة. ويبقى الهدف من إجراء المقابلة هو المحدد لنوعها.

**ج- الوثائق**

إن جمع الوثائق والعينات المادية وغير المادية هي طريقة غير تفاعلية في الحصول على البيانات. ويسعى الباحث باستخدام هذه الطريقة إلى الحصول على معلومات من الوثائق والعينات المادية وغير المادية. فالوثائق والملفات والعينات المادية وغير المادية تمثل انعكاساً للمعتقدات والسلوكيات التي تشكل الثقافة، فهي تصف الخبرات الإنسانية والأفعال والقيم، فالإثنوغرافي في هذا المجال يتبنى أساليب المؤرخين في تحليل الوثائق وأساليب علماء الآثار في دراستهم الأشياء التي أوجدها القدماء، ومن هذه الوثائق:

1- **الوثائق الشخصية**: وتتضمن المفكرات والرسائل الشخصية والسجلات القصصية.

2- **الوثائق الرسمية**: تأخذ الوثائق الرسمية أشكالاً متعددة منها وثائق المؤتمرات ونصوص الاجتماعات وأوراق العمل ومسودات المخططات. وتعتبر هذه وثائق غير رسمية تبرز وجهة نظر داخلية صادرة عن مؤسسة ما لوصف الوظائف والقيم، ويمكن أن تزود الباحث بإشارات حول أسلوب الإدارة والقيادة.
3- **الأشياء**: وهي عبارة عن رموز وكيانات محسوسة تكشف عن العمليات الاجتماعية والمعاني والقيم، ومن الأمثلة عليها: المجسمات والكؤوس الرياضية والشهادات والملصقات والشعارات الرسمية.

4- **مؤشرات القدم والتلف**: تشير هذه المقاييس إلى درجة تآكل بعض المرافق العامة. في المدرسة مثلاً، فإن تآكل الممرات المدرسية والقاعات والساحات وغيرها تعتبر مؤشراً على القدم والتلف، ولها معاني محددة للباحث.

## خطوات بناء المنهج الإثنوغرافي

يمكن تلخيص الخطوات كما يلي:

1. **اختيار مشروع إثنوغرافي**: ويختلف مجال هذه المشروعات اختلافاً كبيراً عن دراسة مجتمع كامل معقد، مثل جماعات صيد الإسكيمو في ألاسكا، إلى موقف اجتماعي محدود أو مؤسسة صغيرة، مثل أحد النواحي الرياضية أو ملعب المدرسة. وللموقف الاجتماعي دائماً ثلاثة مكونات: المكان والممثلون والأنشطة.

2. **طرح أسئلة إثنوغرافية**: يحتاج الباحث إلى أن يكون لديه مجموعة من الأسئلة لترشده فيما يسمع أو يرى وفي جمع البيانات.

3. **جمع البيانات الإثنوغرافية**: يقوم الباحث بدراسة ميدانية لمعرفة الأنشطة التي يقوم بها الناس والخصائص الفيزيائية للمكان وكيف يكون شعور المرء عندما يكون جزءاً من الموقف. وهنا يستخدم الباحث ملاحظة المشارك والمقابلات المتعمقة، وغير ذلك من أساليب جمع البيانات.

4. **عمل سجل إثنوغرافي**: وتتضمن هذه الخطوة أخذ الملاحظات ورؤوس أقلام وصور ميدانية وعمل الخرائط واستخدام أية وسائل أخرى لتسجيل الملاحظات

5. **تحليل البيانات الإثنوغرافية**: يتبع الدراسة الميدانية دائماً تحليل البيانات، مما يؤدي بالتالي إلى أسئلة جديدة وفرضيات جديدة، ويتبع ذلك مزيد من جمع البيانات، وتحليل أكثر **لهذه الأخيرة**، وتستمر هذه الدورة حتى يكتمل المشروع.

6. **كتابة التقرير الإثنوغرافي**: يجب **أن يكتب الباحث** التقرير الاثنوجرافي بحيث يجلب الثقافة موضوع المشروع إلى الحياة أمام القارئ ليشعره بأنه يفهم الناس وطريقتهم في الحياة. ويمكن للباحث تبسيط هذا العمل بأن يبدأ الكتابة في وقت مبكر أثناء جمع البيانات بدلاً من الانتظار إلى النهاية. ومما يسهل مهمة الكتابة أيضاً أن يقرأ الباحث التقارير الإثنوغرافية الأخرى الجيدة قبل أن يبدأ في كتابة تقريره.

# المحاضرة الثانية

# الأنثروبولوجيا والتربية

إنّ لفظة أنثروبولوجيا Anthropology، هي كلمة إنكليزية مشتقّة من الأصل اليوناني المكوّن من مقطعين : أنثروبوس Anthropos ، ومعناه " الإنسان " و لوجوس Logos، ومعناه " علم ". وبذلك يصبح معنى الأنثروبولوجيا من حيث اللفظ " علم الإنسان " أي العلم الذي يدرس الإنسان.

ولذلك، تعرّف الأنثروبولوجيا، بأنّها "العلم الذي يدرس الإنسان من حيث هو كائن عضوي حي، يعيش في مجتمع تسوده نظم وأنساق اجتماعية في ظلّ ثقافة معيّنة .. ويقوم بأعمال متعدّدة، ويسلك سلوكاً محدّداً"، وهو أيضاً "العلم الذي يدرس الحياة البدائية، والحياة الحديثة المعاصرة، ويحاول التنبّؤ بمستقبل الإنسان معتمداً على تطوّره عبر التاريخ الإنساني الطويل.

وتعرف الأنثروبولوجيا أيضاً، بأنّها علم (الأناسة) العلم الذي يدرس الإنسان كمخلوق، ينتمي إلى العالم الحيواني من جهة، ومن جهة أخرى أنّه الوحيد من الأنواع الحيوانية كلّها، الذي يصنع الثقافة ويبدعها، والمخلوق الذي يتميّز عنها جميعاً.

كما تعرّف الأنثروبولوجيا بصورة مختصرة وشاملة بأنّها " علم دراسة الإنسان طبيعياً واجتماعياً وحضارياً " أي أنّ الأنثروبولوجيا لا تدرس الإنسان ككائن وحيد بذاته، أو منعزل عن أبناء جنسه، إنّما تدرسه بوصفه كائناً اجتماعياً بطبعه، يحيا في مجتمع معيّن له ميزاته الخاصة في مكان وزمان معينين.

واستناداً إلى هذه المنطلقات، فقد حدّدت الباحثة الأمريكية (مارغريت ميد) طبيعة علم الأنثروبولوجيا وأبعاده، بقولها : " إنّنا نصنّف الخصائص الإنسانية للجنس البشري (البيولوجية والثقافية) كأنساق مترابطة ومتغيّرة، وذلك عن طريق نماذج ومقاييس ومناهج متطوّرة. كما نهتمّ أيضاً بوصف النظم الاجتماعية والتكنولوجية وتحليلها، إضافة إلى البحث في الإدراك العقلي للإنسان وابتكاراته ومعتقداته ووسائل اتصالاته. وبصفة عامة، نسعى – نحن الأنثروبولوجيين –لتفسير نتائج دراساتنا والربط فيما بينها في إطار نظريات التطوّر، أو ضمن مفهوم الوحدة النفسيّة المشتركة بين البشر .."

وتختص الأنثروبولوجيا بصورة عامة بعدد من السمات الأساسية التي تميّزها عن العلوم الأخرى، وأهمها:

✔تركز الأنتروبولوجيا على دراسة جماعات خاصة من حيث التكوين والوظيفة، مثل: الجماعات البدائية، الجماعات الريفية، العرقية الإثنية، والأقليات، وتتميز هذه الجماعات بأنها بسيطة وشفافة وصغيرة وقليلة الكثافة، ويبدو هذا التركيز واضحا جدا في مرحلة التأسيس والنهوض.

✔اعتماد الأنثروبولوجيا على منهج الملاحظة بالمشاركة والمقارنة والوصف الحي للظواهر المدروسة والدراسات القلية. وتركز على نحو خاص على البحث بالمعايشة الذي يتطلب اندماج الباحث في الوسط الثقافي والاجتماعي للجماعات التي يدرساها.

✔تتبنى الأنثروبولوجيا الطابع الشمولي والكلي في دراستها للمجموعات البشرية الخاصة. ويركز هذا المنهج على دراسة المجتمع دراسة كلية تشمل عقائده، وشعائره، واقتصاده، وسياسته وتكويناته الفيزيائية والطبيعية والتاريخية.

## الأنثروبولوجيا والتربية

الأنثروبولوجيا التربوية الأكاديمية حديثة النشأة وذلك لأن الأنتروبولوجيين لم ينظروا في بداية الأمر إلى المؤسسات المدرسية كموضوع من الموضوعات الأساسية لأبحاثهم، حيث كان اهتمامهم يركز على الأسرة واللغة والدين والاقتصاد خارج دائرة المؤسسات المدرسية. لقد أراد هؤلاء الأنتروبولوجيون في البداية تأسيس معرفة أنتروبولوجية على أساس الثقافة الموجهة إلى المربين والمخططين المعنيين بالعملية التربوية للسكان الأصليين في المستعمرات. كما هو الحال بالنسبة للمهاجرين والأقليات العرقية في داخل مجتمعاتهم، وهم في دائرة هذا التوجه كانوا يعملون على دحض الأفكار والمزاعم الخاطئة التي نسبت إلى ذكاء السكان الأصليين والأقليات العرقية وقدرتهم على التعلم والاكتساب[2].

كما يقصد بأنثروبولوجيا التربية ذلك الفعل الذي نمارسه على الآخر من أجل تكوينه وتنشئته وتربيته وتهذيبه. أي : ذلك الفعل الإنساني الهادف والمثمر الذي يكون الهدف منه هو تأهيل الآخر وتزويده بمجموعة من المعرف والموارد والمهارات والإمكانيات والمؤهلات المعرفية، والقيم والميول الوجدانية، والممارسات السلوكية والحس-حركية، وبتعبير آخر، هو إخراج الإنسان من طبيعته البيولوجية إلى طبيعة ثقافية بفعل التربية والتعليم[3].

2 علي أسعد وطفة، انتروبولوجيا التربية علم في طور الارتقاء موقع أرنثروبوس، aranthropos.com

3 جميل حمداوي، المرجع السابق، ص104.

يعد إيميل دوركايم المؤسس الفعلي للأنثروبولوجيا التربوية بين عام 1922 و1925، حيث ربط مهمة التعليم بعملية التطبيع والتنشئة الاجتماعية، ومن ثمّ، فإنّ هدف المدرسة أو التربية هو الحفاظ على توازن المجتمع وتماسكه وترابطه العضوي.

## منهجية البحث في الأنثروبولوجيا

البحث في الأنثروبولوجيا ما هو إلا حالة خاصة من البحث في العلوم الاجتماعية، فهو يخضع لنفس النموذج والذي يحتوي على أربعة مراحل:

### 1.مشروع البحث :

قبل الانطلاقة الفكرية لأي بحث أنثروبولوجي يحدد الباحث الأهداف الحقيقية التي تتبعها الدراسة سواء كانت أهداف علمية كاختبار نظرية، تجربة أساليب مستحدثة أو أهداف عملية العلاقات العرقية والتحضر، يجب عليه تحديد الموضوع الذي يريد دراسته ويتجه فيما بعد إلى الميدان لاختيار الجماعة الأولى أو المجال الذي يقيم عليه الدراسة.

### 2.تقنيات ومناهج البحث :

في هذه المرحلة يضطر الباحث إلى اختيار منهج بحث معين يتماشى وطبيعة الموضوع المراد دراسته ومع القناعات المنهجية للباحث، ثم يختار من بين الأدوات المنهجية (تقدير البحث) أساليب جمع البيانات التي يراها مناسبة وفعالة في هذا الموضوع بالذات ومن أهم هذه الأساليب المتوفرة في الأنثروبولوجيا ما يلي :

أ- الملاحظة بالمشاركة: يعتمد الباحث في هذا الأسلوب على ملاحظة حياة المجتمع المبحوث عن طريق الاندماج فيه وبالتالي يصبح عنصرا كباقي العناصر التي تكون هذا المجتمع فيعيش وينام ويأكل بنفس الطريقة التي يعيشها أفراد هذا المجتمع. وقد جاءت هذه التقنية مع مالينوفسكي الذي رفض قطعيا وبدل أن يأتي بالمبحوث إلى مقر سكناه توجه هو إلى ميدان المبحوث وعاش حياته بطريقة عادية حتى أن بعض الباحثين استعملوا حيلا وإغراءات من أجل الحصول على قدر كبير من البيانات كإخفاء أدوات التسجيل وشراء المعلومات وسرقة بعض الأدوات، ويظهر من خلال هذه التقنية أن الباحث يقوم بوظيفتين مختلفتين، تتمثل الأولى في المشاركة والثانية في الملاحظة.

ب-المقابلة: يعتبر الحوار والاستجواب من النقاط الضرورية في البحث الأنثروبولوجي، وتميل هذه المقابلة لأن مقابلة غير موجهة لأنها تشتمل على الحديث الهادئ وتوجيه أسئلة ذات نهايات مفتوحة تعطي فرصة للمبحوث لإبداء رأيه في مختلف المواضيع المطروحة وتتميز المقابلة في البحث الأنثروبولوجي بأنها أكثر مرونة بحيث يتغاضى الباحث على جهل المبحوث الذي يخرج عن الموضوع، ولا يفوتنا أن نشير إلى أن النقطة الرئيسية في المقابلة هي تولد الثقة بين الباحث والمبحوث.

ت- تاريخ الحياة: تعالج الأنثروبولوجيا عملية نمو الفرد في إطار الثقافة أو المجتمع من جانبين، يركز الجانب الأول على دورة الحياة وعلى تاريخ الحياة، ففي دورة الحياة يعالج الباحث أسلوب المجتمع في تنشئته وتهيئته للصغار ليصبحوا أعضاء منتمين إليه من خلال التنشئة الاجتماعية. أما تاريخ الحياة فيعتمد على رواية أحد الإخباريين لقصة حياته من فترة الطفولة ومرحلة النضج، ويسرد الإخباري ذكرياته والأحداث المؤثرة في حياته الفعلية ويسجل الباحث كل التفاصيل الجزئية التي يقوم بتحليلها للكشف عن الروابط الوثيقة بين الشخصية والثقافة.

ث- الطريقة الجينيالوجية: وضع هذه الطريقة ريفرز وهو يعمل ضمن بعثة جامعة كمبردج عام 1898 وهي تقوم على أساس تتبع العلاقات بين الإخباري وسائر المرتبطين به قرابيا وتسجيل ما يراه مناسبا من بيانات تشمل الأسماء والأنواع وتواريخ الميلاد والزواج والطلاق والوفاة والإقامة والعمل وغير ذلك من البيانات التي تفيد موضوع الدراسة وهي توضع في صورة تخطيط هندسي.

ج-استخدام الآلات الحديثة: أدخلت في الدراسات الحقلية الأنثروبولوجية بعض الآلات والتجهيزات الحديثة كاستخدام آلات التصوير في كل مراحل البحث وأسلوب الأفلام السينمائية في عرض التجارب الإثنوغرافية وآلات التسجيل الصوتي.

3.تحديد البيانات:

تبدأ بوادر التحليل في مرحلة مشروع البحث لأن الباحث يضع في بداية الدراسة اختيارات خاصة بالموضوع، الموقع الجغرافي والنظرية التي تؤدي إلى تعريف وتحديد الميدان. أما في مرحلة ما بعد البحث الميداني ينتقل الباحث إلى تحليل البيانات الكيفية والكمية التي تختبر الفروض أو التساؤلات التي طرحها الباحث في الدراسة وتنتشر في الأنثروبولوجيا التحاليل الكيفية التي تفيء إجابات المقابلات المفتوحة ومعطيات الطريقة الجينيالوجية.

### 4.عرض النتائج (تقرير الدراسة)

تشمل هذه المرحلة الأخيرة على حوصلة شاملة لمختلف مراحل الدراسة حيث يبدأ الباحث تقريره بمرحلة بناء الموضوع، أهداف الدراسة، الإشكالية، الفرضيات إن وجدت النظرية، ثم يعرف المناهج وأساليب جمع المعطيات التي اختارها ليخلص إلى تحليل البيانات وتبيين النتائج التي وصل إليها من خلال هذه الدراسة.

# المحاضرة الثالثة

# النظرية الإثنوميتودولوجية

النظرية الإثنوميتودولوجية، من هي واحدة من النظريات السوسيولوجية الكبرى بعد النظرية الوضعية، والنظرية الوظيفية. فإذا كانت الوضعية تهتم بالبناء الاجتماعي وتأثيره على الفرد، والنظرية الوظيفية تعنى بالأنساق الوظيفية، فإن النظرية الإثنوميتودولوجية تهتم بالفاعل باعتباره وحدة التحليل السوسيولوجي، وكونه كائنا فرديا يتمتع بالحرية في اختيار أسلوب فعله، بعيد عن ممارسات القهر الاجتماعي، والإلزام والإكراه، وبعيدا عن الحتميات الاجتماعية والمؤثرات الخارجية.

إن الإثنوميتودولوجية تدرس الواقع الروتيني اليومي، ومدى ارتباط هذا الواقع بذاتية الفاعل، وإيجابية دوره، وعقلانية فعله، مع التركيز على دور اللغة في تنظيم المجتمع على مستوى التواصل والتفاعل الرمزي، كما تركز على مرونة البناء الاجتماعي، والاستعانة بالمناهج الكيفية[4].

## مفهوم الإثنوميتودولوجية

يتكون مصطلح الإثنوميتودولوجية(L'ethnométhodologie) من كلمتين: "الإثنو" والتي تعني الشعب، أو القبيلة، أو الناس، أو السلالة، ومنها كلمة الإثنولوجيا أي دراسة الشعوب القديمة أو البدائية. أما كلمة الميتودولوجيا، فتعني المنهجية أو البحث.

أول من صاغ هذا المصطلح هو Harold Garfinkel من أجل الإشارة إلى "النظرية التي تهتك بدراسة الطراق والمناهج التي ينهجها الأفراد في الواقع الفعلي لخلق أنماط سلوكية عقلانية تمكنهم من التفاعل والتعايش في معترك الحياة. هذه الطراق مستمدة من المعرفة والفهم الشائع في المجتمع، وليس من التراث والمناهج العلمية المنظم التي يحددها العلماء الاجتماعيون[5] للتوضيح اكثر فإن الدراسات الإثنوميتودولوجية تحلل أنشطة الحياة اليومية تحليلا يكشف عن المعنى الكامن خلف هذه الأنشطة، وتهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن الطرائق التي يسلكها أعضاء المجتمع خلال حياتهم اليومية لتكوين نوع من الألفة بالأحداث والوقائع

4 جميل حمداوي، المرجع السابق، صص 105-106.

5 نفس المرجع، ص106.

وبالانتقال إلى المجال التربوي، فإن هذه المقاربة وعلى عكس المقاربات السابقة التي تتناول الوقائع التربوية على شكل علاقات أو ترابطات إحصائية كالعلاقة بين عدم المساواة والكفاءات المدرسية حسب الجنس والمستوى الاجتماعي، والتي تعتبر مثل هذه العوامل كفيلة بتفسير عدم المساواة. **تقوم بوصف الممارسات التي من خلالها يقوم الفاعلون في النظام التربوي (معلمون، متعلمون، آباء، واضعو المناهج وغيرهم) بخلق وإنشاء وتشكيل هذه الظواهر.** إنها تدرس الظاهرة وهي تتكون وتتشكل (ظاهرة اللامساواة مثلا) عكس علماء اجتماع إعادة الإنتاج الذين يدرسون الظاهرة بعد وقوعها ومن ثم يبحثون عن أسبابها

## أسس النظرية الإثنوميتودولوجية

تنطلق النظرية في رسم تصورها السوسيولوجية من مجموعة من المسلمات هي :

1- **دراسة الواقع الروتيني العادي واليومي :** أي دراسة الفعل الاجتماعي الصادر عن الفاعل في الأمكنة العامة، أو أماكن العمل، أو في الأماكن التي يشبع فيها الأفراد حاجياتهم الاجتماعية اليومية التي تتكرر يوميا.

2- **ذاتية الواقع الاجتماعي :** أي أن الواقع الاجتماعي مرتبط بالفاعل أو الذات الفردية التي تعبر عنه بواسطة الكلمات والعواطف والإشارات، ضمن تجارب ذاتية وإنسانية غير خاضعة للتشيء الموضوعي.

3- **إيجابية الفاعل الاجتماعي :** على عكي الوظيفية والوضعية اللتان تعتبران أن الإنسان هو نتاج المجتمع وجبرياته وحتمياته. ترى الإثنوميتودولوجية أن الإنسان كائن إيجابي له دور كبير في تغيير المجتمع.

4- **عقلانية الفعل الاجتماعي :** يعني أن الفعل الاجتماعي فعل عاقل وهادف، يخضع لمنهجية أو خطة أو طريقة واضحة. ويعني أيضا أن كل موقف تفاعلي له منطق، من خلال إدراك الفاعل له وتقييمه، وبهذا المعنى تدرس النظرية **الأفعال العاقلة والهادفة التي تحمل مضمونا اجتماعيا، ضمن واقع سياق تفاعلي.**

5-**دور اللغة في تنظيم المجتمع :** تهتم المقاربة الإثنوميتودولوجية بتحليل المحادثات والتفاعلات الاجتماعية الرمزية، من خلال التركيز على حديث الأفراد، وطريقة حديثهم، والفضاءات التي يتحدثون فيها، والتركيز على التواصل اللغوي وغير اللغوي، الصريح والضمني، والقواعد التي تتحكم في هذا التواصل التفاعلي الرمزي.

6- **واقعية المصطلحات العلمية :** لابد من توظيف واستخدام المصطلحات نفسها التي يستخدمها الأفراد في أثناء تفاعلهم في المجتمع، والابتعاد قدر الإمكان عن المصطلحات السوسيولوجية العلمية الأكاديمية، فعلى الباحثين

في علم الاجتماع أن يستخدموا التعبيرات الدالة المرتبطة بالحياة اليومية، وبسياق الفعل الاجتماعي العادي واليومي للأفراد الفاعلين، أكثر من التعبيرات الموضوعية التي ترتبط بالعلوم والمعارف العلمية التي تصف الظواهر والأنشطة العلمية.

7- **مرونة البناء الاجتماعي :** حسب هذه النظرية ليس هناك بناء مجتمعي ثابت، او نسق يتخذ صورة دائمة بشكل مستقر، فالبناء الاجتماعي يخضع للأفراد، ويتغير بتغيرهم، وبتغير الزمان والمكان، ما يجعل من الأنساق الاجتماعية بنى وأنساقا مرنة بمرونة الظروف الاجتماعية التي تحيط بهم.

**8- الاعتماد على المنهج الكيفية :** النظرية الإثنوميتودولوجية من المقاربات الكيفية التي لا تعتد على الإحصاء الرياضي كما هو الشان في الوظيفية والوضعية التجريبية، بل تعتمد المعايشة(المشاركة) كمنهج لدراسة الظواهر الاجتماعية الفردية اليومية وهذا هذا يصبح الفعل الفردي فعلا عقلانيا وهادفا وراشدا.

تقوم هذه المنهجية على ثلاثة معايير أساسية :

**1.**ملاحظة الواقع أو الميدان؛

**2.**وضع حدود للموضوع الذي نحلله وندرسه؛

**3.**المعايشة القائمة على الحضور الفعلي داخل الميدان في الزمان والمكان قصد وصف المعنى الذي تحمله أفعال جماعة معينة.

في مجال سوسيولوجيا التربية، فإن هذه المقاربة "**تقتصر على دراسة الفاعلين، معتمدة على التحليل المصغر مما يجعلها علم اجتماع بدون مجتمع**". وهي كما يقول Coulon « لا تنفي البنية الاجتماعية و لا تحصر دراستها في مستوى تفاعلات الفاعلين المدرسين، وإنما تركز على عدم دراسة البنية معزولة عن النشطة التي تساهم في بناء البنية. إنها تبين كيف أن الوقائع التربوية الموضوعية تنبثق عن الأنشطة. غنها تكشف وتعري الإجراءات التي بواسطتها يخفي المجتمع عن أفراده أنشطة التنظيم، ويقودهم للاعتراف بها كأشياء محددة ومستقلة. إنها فتحت العلبة السوداء للمدرسة، وجعلت الكل يرى كيف تتكون اللامساواة ».

- **المرجعية (L'indexicabilité)** : أي أن كل فعل يتم في نسق معين، ولفهم التعامل من خلال التفاعل من الضروري الإشارة إلى هذا التعامل في الحالة التي تجري فيها في الزمان والمكان. الفكرة هنا أم معنى كل ظاهرة مرتبط بالسياق الذي تتم فيه، إرجاع شيء إلى شيء، الشيء في بعده المادي.

- **الإنعكاسية (La réflexibilité)** : بينما المرجعية هي جزء مادي أو طبيعي في التعاملات بين الأفرد، فالإنعكاسية متغيرة من فرد إلى فرد. لا يمكن بناء الدلالة عند الأفراد بنفس الطريقة. (الشيء في بعده الثقافي).

- **القابلية للوصف (La describilité)** : وهي القابلية للوصف والتلخيص,

- **الإنتمائية (L'appartenance)** : التحكم فب المعرفة الخاصة بالمجتمع ومقاييسه وقيمه ومعاييره سواء كانت طبيعية (أصلية) أو إندماجية (مستعارة).